مجتمع الاسكندرية فى العصر البطلمى

مصريون واغريق

للدكتور مصطفى العبادى

مازالت أهمية موقع مدينة الاسكندرية فى العصر الفرعونى — قبل الاسكندر الأكبر — من مشاكل التاريخ التى تحتاج لمزيد من الدراسة الدقيقة . وهناك من الأدلة التاريخية ما يشير إلى أن الموقع كانت له أهميته بالنسبة لمصر الفرعونية ، وأقدم من يحدثنا عن هذا الموقع فى شىء من الثقة هو استرابون ، (١) فيقول : «ان ملوك المصريين الأوائل — نظراً لأنهم كانوا سعداء بما لديهم ، ومستغنين عن استيراد السلع ، ولعدم ثقتهم فى كل من ركبوا البحر وخاصة الأغريق ، الذين — بسبب ندرة الأرض عندهم — كانوا يغيرون ويطمعون فى أرض غيرهم ، أقام (هؤلاء الملوك) حامية عسكرية فى هذا المكان ، وكلفوها برد المغيرين . ومنحوهم موطناً لهم الموقع الذى يسمى راكوتس ، وهى التى تحتل الآن ذلك الجزء من الاسكندرية الذى يقع أعلى (جنوبى) الميناء ، وكانت فى ذلك الوقت قرية . ومنحوا الأرض حول القرية للرعاة — وهم قوم أشداء ليصدوا المعتدين المغيرين» .

يتضح من هذا النص أن موقع الاسكندرية القديم كانت له أهمية عسكرية على الأقل زمن المصريين القدماء ، وان حامية عسكرية اقيمت فى مكان مناسب من قرية راقودة ، ولابد أن هذا المكان المناسب كان

---

(١) استرابون ١٧ ، ١ ، ٦ . أقام استرابون بالاسكندرية بين ٢٥ — ٢٠ ق.م ، ولابد أنه اعتمد على مصادر أكثر قدما ، لم تصل الينا .

الربوة التى صبح يطلق عليها اسم السرابيوم فيما بعد . فالمصادر القديمة تتحدث عن السرابيوم على أنه قلعة (Acroplis) (٢) .

ويحدثنا نص آخر — أقل قيمة من حيث سنده التاريخى (٣) — من أن هذا الموقع — قبل الاسكندرية — كانت تزوده بالمياه العذبة قناة تمتد غرباً من الفرع الكانوبى للنيل عند موقع يقال له شديا (Schedia أى المعدية) ، وان موقع الاسكندرية كانت تنتشر فيه ست عشرة قرية — راكوتى احداها ، وان هذه القرى كانت تصلها بالقناة الكبرى اثنتا عشرة قناة فرعية . فاذا سلمنا بأن هذا القول يتضمن أساساً من الحقيقة ، تبين لنا أن قرية راقودة المصرية لم تكن معزولة بمفردها فى هذا الموقع ، وان هذه المنطقة المحصورة بين بحيرة مريوط وساحل البحر كان ينتشر فيها عدد غير قليل من القرى المصرية .

ولكن لماذا اختار الاسكندر موقع راقودة بالذات ليؤسس عنده مدينته ؟ لابد أولا انها كانت أكبر وأهم القرى جميعاً ، وهى القرية الوحيدة التى حفظ لنا التاريخ اسمها ، ويبدو انها كانت منتشرة إلى ساحل البحر حتى ان استرابون أطلق عليها اسم مدينة ، فيقول : «ولكن الاسكندر عندما زار المكان قرر تحصين المدينة التى عند الميناء» . (٤) . وإذا اضفنا إلى موقعها عند ربوة مرتفعة اقامت عليها حامية عسكرية ، انها واجهت فى البحر جزيرة قريبة من الساحل هى جزيرة فاروس ، ادركنا ما جال فى عقل الاسكندر من امكان الوصل بين الجزيرة والساحل بواسطة جسر كبير (Heptastadium) تمتد عليه قناة لتوصيل الماء العذب إلى الجزيرة بعد استيطانها واستغلالها . وبذلك أمكن إنشاء ميناءين كبيرين ، احداهما الميناء

---

(٢) بو ليبيوس ٥ ، ٣٩ ، افثونيوس (نشر ، فى
(Botti, La Colonne Theodisienne, p. 23.
(٣) سيرة الاسكندر الأكبر ، المنسوبة لكاليستنيس Ps. Callisthes,i,31,2 - 5
(٤) استرابون ١٧ ، ١ ، ٦ .

الشرقية الرئيسية قديما والميناء الغربية الحالية التى أطلق عليها « العود الحميد » Eunostos (٥)

ويمكننا أن نتساءل : هل كانت فكرة انشاء ميناء فى هذا المكان جديدة فى جملتها ، وأن الاسكندر هو صاحبها ؟ فلقد عثر على ارصفة ضخمة ممتدة تحت سطح البحر أمام ساحل جزيرة فاروس الشمالى . ونظراً لضخامة حجم حجارتها اقترح مكتشفها جونديه انها تحصينات مصرية قديمة ترجع إلى زمن رمسيس الثانى (٦) فى حين اقترح آخر أنها جزء من أعمال امبراطورية الكريتيين فى منتصف الألف الثانى ق. م (٧) ، واعتقد غيرها انها جميعا من أعمال البطالمة (٨) . يتضح من هذا التباين الشديد فى الآراء أن معلوماتنا عن هذه الارصفة لاتتعدى مجرد وجودها وانها ضخمة الحجم . ولكن نظراً لأن جزيرة فاروس كانت معروفة لدى الأغريق منذ زمن هوميروس (٩) أى قبل الاسكندر الأكبر بخمسة قرون على الأقل ، فمن المحتمل انها كانت محطة على طريق الملاحة الرئيسية بين اليونان وميناء كانوب (أبى قير) ، عند مدخل الفرع الكانوبى ، الذى يحدثنا هيرودوت . بأن الملوك المصريين ألزموا تجار الأغريق بالاتجاه اليه(١٠) .

ولنا أن نسأل الآن ماذا فعل الأسكندر بهذا الموقع ولماذا أسس عنده

---

(٥) المصدر السابق .

(٦) G. Jondet, Les Ports submergés de l'ancienne Ile de Pharos, Memoires présentes à l'Instiut Egyptien, vol. IX. (1961).

(٧) R. Weill, Les Ports antehelleniques de la côte d'Alexa ndrie, et l'empire Cretois, BIFAO, XVI (1919)

(٨) F. Petrie, apud Ed. Bevan, Ptolemaic Egypt, p. 7, n.l.

(٩) هوميروس ، أوديسيا ، ٤ ، ٣٥٤ .

(١٠) هيرودوت ، ٢ ١٧٩ .

أخلد أعماله جميعا وهى مدينة الاسكندرية ؟ تتفق المصادر القديمة على أن الاسكندر مر بهذا الموقع أثناء رحلته إلى واحة سيوه وأنه لحظ أهميته وأعجب به فأمر بتأسيس مدينة تحمل اسمه هناك ، وأنه إأمر المهندس دينتمراطيس بتخطيط المدينة ، وأنه رأى التخطيط بنفسه على الطبيعة وأقره ، ثم كلف كليومينيس وزير ماليته فى مصر بالاشراف عل تشييد المدينة الجديدة (١١) . ثم رحل الاسكندر بعد ذلك ليستأنف حربه ضد الملك الفارسى ، ولم يعد ثانية إلى مدينته الا بعد موته ، حين استقر جثمانه بها فى مقبرة رائعة كانت محجة القاصدين والزائرين طيلة العصر البطلمى والرومانى (١٢) .

من هذه البداية البسيطة السريعة ، نمت الاسكندرية نموا هائلا قليل الحدوث ، فأصبحت طيلة الألف سنة التالية عاصمة لمصر ومركزا لحامية عسكرية وأهم ميناء فى البحر المتوسط ومن أشهر المراكز الحضارية فى العالم القديم ، ومن أكثر مدنه سكانا . هذه هى المعالم الرئيسية التى أثرت فى نمو مدينة الاسكندرية وتكوين سكانها . وما من شك أن هذه المعالم استغرقت زمنا طويلا لا يقل عن مائة سنة حتى استكملت ملامحها النهائية . ولكن يجب علينا ان نبدأ بالاسكندر لنرى كيف بذرت البذرة وكيف تعهدت فى مراحلها الأولى ، بحيث أمكن أن تنمو وتورق وتثمر بعد ذلك على نحو ما هو معروف فى التاريخ .

كانت خطة الاسكندر فى تأسيس المدن — وقد كان مؤسساً للمدن — واضحة بسيطة . وهى اقامة حامية مقدونية مع جماعة من الأهالى المحليين (١٣) وما من شك ان هذين الركنين من الخطة توافرا فى تأسيس الاسكندرية ،

---

(١١) ديو دور الصقلى ١٧ — ٥٢ — ١ استرابون ١٧—١— ٦ ، بلوتارخ . الاسكندر ٢٦ ، أريانوس ، ٣ — ١ — ٥ ، كوينتوس كورتيوس ٤ — ٨ — ٥ ، يوستينوس ١١ — ١١ — ١٣ .

(١٢) استرابون ١٧ — ١— ٨ .

(١٣) A.H. M. Jones, The Greek City, pp. 2 ff.

فبمجرد ما أقر تخطيط المدينة وأمر بانشائها أقام بها حامية مقدونية (١٤) . أما بالنسبة للمصريين فقد أبقى على أهل راقودة وأضاف اليهم آخرين من سكان القرى والمدن الآخرى المجاورة (١٥) . ولكن نظراً لقصر مدة اقامة الاسكندرى مصر فلعل تلك كانت رغبته وكلف كليومينيس بتنفيذها لأننا نرى كليومينيس بعد ذلك يقوم بعملية نقل أهالى كانوب إلى الاسكندرية (١٦) ويمكننا ان نضيف إلى هذين العنصرين من السكان الأوائل اعداداً من الأغريق سواء من الجنود المرتزقة فى جيش الاسكندر أو ممن كانوا قد استقروا فى مصر من قبل فى ممفيس أو من تجار مدينة نقراطس . وهؤلاء هم الذين استخدمهم كليومينيس فى شبكته العالمية من التجار والسماسرة (١٧) وقد يتضح من النشاط التجارى الكبير الذى ارتبط بشخصية كليومينيس أن الطابع التجارى للمدينة وجعلها ميناء كبرى ارتبط أيضاً بتخطيط المدينة الأول ، وأن اهتمام الاسكندر ببناء الجسر (Heptastadium) بين جزيرة فاروس والساحل وبناء الميناءين كان لهذا الغرض (١٨) . إلى هنا نجد أن خطة الاسكندر فى تأسيس المدينة وأهدافه منها واضحة وانها طبقت بوضوح ونجاح أيضاً . وليس هناك خلاف بشأنه . ولكن طابعاً آخر أساسياً من شخصية المدينة لايبدو بمثل هذا الوضوح . وهو اختيار الاسكندرية عاصمة لمصر ، متى حدث؟ وهل ارتبط بخطة تأسيسها الأولى ؟ ومن الغريب ان الكتاب القدماء لم يروا فيه غموضاً ولم يختلفوا بشأنه ، ولهذا قلما ذكروه . ولكن الخلاف نشأ بين المؤرخين الحديثين ، حين رأى كورنمان رابطة منطقية بين توقيت دفن جثمان اسكندر الأكبر فى مدينة

---

(١٤) يوستينوس ١١ — ١١ — ١٣ .

(١٥) كورتيوس ٤ — ٨ — ٥ .

(١٦) كتاب الاقتصاد المنسوب لأرسطو ج ٢ — ٣٣ .

(١٧) أنظر للكاتب « كليومينيس وسياسته المالية » مجلة كلية الآداب — اسكندرية ١٧ (١٩٦٤) ص ٦٥ — ٨٥ .

١٨) استرابون ١٧ — ١ — ٦ .

الاسكندرية وبين اتخاذها عاصمة لمصر (١٩) . ثم تبعه فى ذلك آخرون (٢٠) ولكن نظراً لاختلاف مصادرنا القديمة حول خط سير جثمان الاسكندر إلى مقره الأخير فى الاسكندرية وميعاده ، فمنهم من جعل بطلميوس الأول هو الذى يقوم بهذا العمل (٢١) ومنهم من نسبه إلى بطلميوس الثانى (٢٢) فقد اختلف العلماء الحديثون تبعاً لذلك حول توقيت اتخاذ الاسكندرية عاصمة . ويبدو ان منشأ الخطأ فى مثل هذا النوع من التفكير هو أنه ربط بين حادثتين مختلفتين ومستقلتين منطقاً وتاريخاً . ومن الطريف ان أحد كبار العلماء ممن أخذ بنظرية كورنمان فى أول الأمر وهو «هارولد ادريس بل» ، قد عدل من موقفه وقال فى شيء من التحذير « من المحتمل أن هذا الرأى فى حاجة إلى تعديل» (٢٣) وما من شك ان بل كان محقاً فى تحذيره الذى لم يلق استجابة — فيما أعلم — حتى الآن .

فاذا نحن فصلنا بين الحادثتين — كما أقترح — وجدنا الأمر واضحاً لا لبس فيه ولا ابهام . وفى مثل هذه الأمور كثيراً ما يكون المصدر القديم أصح وأصدق من اجتهادات المحدثين التى تنطوى على كثير من الذكاء . فليس هناك مصدر واحد قديم يربط بين الحادثتين . على العكس من ذلك لدينا نص صريح لمؤرخ قديم ينص على أن الاسكندر عند «عودته من معبد

(١٩) Kornmann, Die Satrapen Politik des Eresten Lagiden, in Raccolta ... in onore d' Giacome Lumbrso, pp. 235—45

(٢٠) H.I. Bell, Alexandria, J.E.A. 13 (1927) p. 172; P.. Jouguet, Trois Etudes, p. 5.

ابراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة حـ ١ ، ٦١ .

(٢١) ديو دور الصقلى ١٨ — ٢٦ — ٢٨ ، سيرة الإسكندر التى تنسب لكاليسثنيس ٣ — ٣٤ .

(٢٢) بوزنياس ١ — ٦ — ٣ ، ١ — ٧ — ١ ، أنظر استرابون ١٧ — ١ — ٨ .
(Loeb, vol. 8, p. 35. n6)

(٢٣) H.I. Bell, Egypt from Alexander to Arab Con - quest, p.35.

الاله آمون أسس الاسكندرية وأمر بأن تكون مستعمرة مقدونية عاصمة لمصر» .

(Reversus ab Hammone Alexandream condidit et coloniam, Macedonum caput esse Aegypti iubet.) (٢٤) .

هذه عبارة صريحة تجعل الاسكندر قد تصور وأراد الاسكندرية أن تكون عاصمة عند تأسيسها . ويبدو انها أخذت هذه الصفة منذ أيامها الأولى . فنجد ان كليومينيس و زيرمالية وحاكم مصر الفعلى زمن الاسكندر جعل مركزه الاسكندرية (٢٥) . ولكن رب قائل يقول ان الميناء الجديد كان انسب لنشاطه التجارى من العاصمة القديمة ممفيس وأنسب من المدينة اليونانية القديمة نقراطيس . ولكن هذا الاعتراض يسقط نهائياً حين نعلم ان دار السكة زمن الاسكندر انشئت فى الاسكندرية سنة ٣٢٦ ق . م (٢٦) وقياساً على ما هو مألوف وعلى ما حدث فعلا فى بابل زمن الاسكندر (٢٧) كانت دار السكة تقام فى العاصمة . ولا نعرف ان عملة الاسكندر صدرت أيضاً فى ممفيس . اعتقد ان هذه النقطة الأخيرة تثبت بما لا يدع مجالا للشك ان الاتجاه الرسمى نحو اتخاذ الاسكندرية عاصمة جديدة قد ارتبط بفكرة تأسيسها . ولكن ما من شك ان الانتقال الفعلى للادارة من ممفيس إلى الاسكندرية استغرق بعض الوقت ، ريثما يتم بناء المنشآت اللازمة فى المدينة الجديدة ، ريثما يتم تكوين الجهاز الادارى المركزى الجديد من عناصر اغريقية . ولا نعرف على وجه التحديد كم استغرق ذلك من زمن ولكن فى أول مناسبة نسمع فيها عن بطلميوس الأول من وثيقة مصرية معاصرة فى سنة ٣١١ ، نجد الكهنة المصريين يقولون انه «كان قد اتخذ مقامه فى قلعة الملك اسكندر ، ، التى تسمى الاسكندرية على شاطىء البحر

(٢٤) يوسنينوس ١١ – ١١ – ١٣ .
(٢٥) أنظر للكاتب مقالة « كليومينيس» سالفة الذكر .
(٢٦) C. Seltman, Greek Coins, p. 212.
(٢٧) ibid., p. 211.

to: www.al-mostafa.com

«الأيونى الكبير ، وكان اسمها من قبل راكوتى » . (٢٨) وبدراسة هذا النقش وتحليله أمكن ارجاع انتقال بطلميوس الأول إلى الاسكندرية إلى عام ٣٢٠ — ٣١٩ ق . م . على الأقل (٢٩) . ولا ينبغى أن يخفى عنا مقدار ما شعر به المصريون من مرارة وحزن لانتقال العاصمة والآلهة من ممفيس إلى الاسكندرية وقد لازمهم هذا الشعور طالما كانت الاسكندرية عاصمة ، ولم ينسوا أبداً اسمها القديم راكوتى .

بعد هذه المناقشة لنشأة المدينة وتأسيسها زمن الاسكندر الأكبر ، يجب أن ننتقل إلى صلب موضوعنا عن مجتمع الاسكندرية فى العصر البطلمى ذلك أن المدينة لم تبق على بساطتها الأولى طويلا ، وسرعان ما نمت وتطورت تحت رعاية البطالمة الأوائل واهتمامهم ، ونافست اثينا ذاتها . وأصبحت المدينة مقصد المهاجرين من كثير من شعوب العالم القديم ، ولكن الأغريق كانوا أكثر هؤلاء المهاجرين عدداً ، ونحن لا نعرف تفاصيل سياسة البطالمة لاستقدام مهاجرين من اليونان للعمل فى بناء الدولة الجديدة فى مجالات الجيش والادارة والاقتصاد . ومن المحتمل أن بطلميوس الأول لجأ إلى اتباع سياسة منظمة لاستيراد مواطنين من مدن يونانية معينة ، مثلما استورد انتجونوس اعداداً من الاثينيين والمقدونيين ليقيمهم فى مدينته الجديدة انتجونيا فى سوريا (٣٠) . ولكننا لانمتلك ما يفيد ان أحد البطالمة فعل ذلك . ومع ذلك فيبدو أن البطالمة لم يضطروا إلى أن يجهدوا أنفسهم كثيراً ليجتذبوا إلى مملكتهم الجديدة اعداداً كبيرة من الأغريق وغير الأغريق . فبالاضافة إلى الحامية العسكرية والجالية التى كان قد

(٢٨) هناك ترجمة كاملةللنص فى كتاب Ed. Bevan, Ptolemaic Dynasty, pp. 28 — 32. The original in K. S ethe, Hierogl. Urkunden, Griech — Rom, ii, pp. ii.

(٢٩) P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, p. 7, note 28.

(٣٠) Malalas, p. 201, ed. Bonn; cf. Jones, Cities of Eastern Roman Provinces, 2nd ed. (1971) p. 238, 448, n. 16; Greek City, p. 7.

تركها الاسكندر ، وما انضاف اليها من الأغريق المستقرين من قبلة فى مصر فلابد أن بطلميوس الأول — عندما عين ساترابا أو حاكماً لمصر — أحضر معه قوة عسكرية أيضاً . ولكن هذه الاعداد لم تكن تكفى حاجات انشاء الدولة الجديدة . ومن أجل تشجيع وتنظيم مزيد من هجرة الأغريق إلى مصر ، اتبع بطلميوس سياسة كانت معروفة فى مصر من قبل ، وهى منح الجنود قطعاً من الأرض تسمى Cleroi (٣١) ، يمكنهم أن يقيموا عليها ويستثمروها ، بدلا من نظام دفع الرواتب نقداً ، وهو ما لم يكن ممارساً فى ذلك الوقت . ومن دلائل تطبيق ونجاح هذه السياسة ما يرويه ديودور الصقلى ان بطلميوس الأول حين انتصر على ديمتريوس فى معركة غزة سنة ٣١٢ ق . م أسر من الجيش المنهزم ٨٠٠٠ جندى وأرسلهم إلى مصر وأمر بأن يوزعوا بين النومات (٣٢) . ولهذا كانت انتصارات بطلميوس الحربية تجلب له عدداً من الجنود المقدونيين والأغريق ، فى حين آن هزائمه لم تكن تفقده الكثير لأن جنوده كانوا يرفضون الانضواء تحت لواء خصمه ، وكانوا يحاولون الفرار إلى مصر حيث لهم أرض وأهل (٣٣) . على أى حال لم يجد بطلميوس مشقة فى الحصول على اعداد كبيرة من الأغريق ، فان اشتهار مصر بالغنى ، واشتهار بطلميوس بالكرم جعل جماعات كبيرة منهم تأتى إلى مصر (٣٤) . ويكفى ان نقرأ تلك الأبيات المشهورة لاحد شعراء القرن الثالث ق . م . وهو هيروداس Herodas ، لندرك شهرة مصر ومدينة الاسكندرية بالملذات . فى هذه القصيدة ، التى تعتبر من نوع المنولوجات الاجتماعية الساخرة ، يحدثنا هيروداس عن امرأة رحل عنها زوجها (أو عشيقها) إلى مصر ، فقصدتها امرأة عجوز ، وأخذت تغريها بأن تحول عواطفها نحو شاب رياضى . ولكن المرأة تظل على وفائها ، وترفض اغراء العجوز بأسلوب مهذب رقيق . والذى يهمنا من هذه

---

(٣١) هيرودوت ٢ — ١٠٩ ١٦٨ .

(٣٢) ديو دور الصقلى ١٩ — ٨٥ — ٣ و ٤ .

(٣٣) ديودور الصقلى ٢٠ ٤٧ — ٣ و ٤ و ٢٠ ٧٥ — و ٢ ، ٢٠ — ٧٦ — ٧.

(٣٤) Rostovzeff, Soc. Ec. Hist. Hell. World, I p. 409

القصيدة ، هو ما يذكره هيروداس على لسان المرأة العجوز من أن الزوج (أو العشيق) لن يلبث أن ينسى صاحبته بمجرد ما تطأ قدماه أرض مصر لكثرة ما فيها من مغريات : «فهناك فى مصر يوجد كل شىء وكل ما يمكن أن يوجد فى أى مكان آخر : ثراء ومعاهد الجمنازيوم وسلطان ورخاء ومجد ومسارح وفلاسفة وذهب وشباب ، ومعبد الأخ والأخت المؤلهين (Philadelphoi) ، الملك الكريم ، ومجمع العلماء ، والخمر . وكل ما يشتهيه الفؤاد من طيبات الحياة ، ونساء أيضاً يفقن نجوم السماء عدداً ، وينافسن فى الحسن أولئك الربات اللائى احتكمن إلى باريس » (٣٥) .

يتضح من هذه الأبيات ان الشاعر هيروداس يتحدث عن مدينة الاسكندرية بالذات وانها قد بلغت فى القرن الثالث ق . م قمة فى الازدهار والثراء وانها قد أصبحت مقصد الطامحين من الشعوب الأجنبية فى الرفعة أو الشهرة أو المجد أو الثراء . فهناك ملك كريم ومجمع للعلماء ومكتبة كبرى ومعاهد وملاعب ومعابد ومسارح وشباب ونساء ونشاط جم فى كل مجالات الحياة . ولم يكن غريباً أن اجتذبت الاسكندرية منذ وقت مبكر عناصر من شعوب البحر الأبيض المختلفة . فوجدنا مجتمع الاسكندرية البطلمية يضم إلى جانب العنصرين الأساسيين من مصريين وأغريق يهوداً فى اعداد كبيرة وسوريين وجماعات من آسيا الصغرى مثل الفريجيين واللوكيين والكيليكيين ، ومن غرب البحر الأبيض رومانا وايطاليين وسيراكيوزيين وقرطاجيين أيضاً (٣٦) . وقد ظل هذا الطابع المختلط هو الصفة المميزة لمجتمع الاسكندرية طيلة العصرين البطلمى والرومانى بعد ذلك .

وليس فى ميسورنا أن نخضع كل واحدة من هذه العناصر للدراسة

---

(٣٥) هيروداس ١ س ٢٣ ومايليه .

(٣٦) Fr. Heichelheim, Auswärtige Bevölkerung im Ptolemäer reich, Klio, Beiheft XVIII (1925) pp. 83 ff. ; Archiv Pap. 9 (1930) pp. 47 ff. 12 (1937) pp. 54 ff.; cf also SB 7169 (IIB.C.); Durrbach, Choix des Inscriptions de Delos, 107 (II B.C.)

التحليلية ولا أن نعرف نسبة تمثيلهم فى مجتمع الاسكندرية . فباستثناء المجموعات الكبرى مثل المصريين والأغريق واليهود، لا تكاد تذكر مصادرنا القديمة عن العناصر الأخرى شيئاً تفصيلياً يشفى حاجة الدارس . وسوف نركز حديثنا هذا على المصريين والاغريق ، ومما يشجعنا على ذلك ان هذين العنصرين كانا أكثر وضوحاً ، وأكثر تميزاً فى حياة المدينة . ويؤيد صحة هذا الانطباع ان المؤرخ بوليبيوس وصف لنا سكان الاسكندرية — كما رآهم فى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م — بهذه العبارة التى يغلب عليها طابع النقد والسخرية : «يسكن المدينة ثلاث طوائف : طائفة المصريين، من عنصر الأهالى الأصليين ، ويتصفون بحدة الطبع وعدم الاعتياد على الحياة المدنية ، وطائفة الجنود المرتزقة ، وتتصف بالعنف والضخامة وصعوبة الانقياد — فحسب تقليد قديم كانوا يتخذون من الأجانب جنوداً مسلحين، تعودوا أن يحكموا أكثر من أن يحكموا نظراً لتفاهة أشخاص الملوك — وثالثاً طائفة الاسكندريين ، وهى لم تألف الحياة المدنية المستقرة — للأسباب ذاتها ، ولكنهم مع ذلك أفضل من الآخرين . لأنهم رغم كونهم خليطاً من الناس فهم مع ذلك أغريق أصلا ، ولا زالوا يذكرون التقاليد المشتركة بين الاغريق » (٣٧) .

هذه العبارة — باعتبارها صادرة عن كاتب على جانب كبير من الثقافة والذكاء مثل بوليبيوس — لها دلالة خاصة . لأنها تثبت أن جميع العناصر الأجنبية فى الاسكندرية بما فيها اليهود قد انصهرت معاً واتخذت الطابع الأغريقى . فاذا استثنينا طائفة الجنود المرتزقة ، لم يكن الزائر للمدينة يميز فى شوارعها سوى طائفتين فقط . هما طائفةالمصريين وطائفة الأغريق، وذلك على أساس اختلاف اللغة والثياب . ولكن وهذا الوصف الذى يورده بوليبيوس — رغم طرافته — يظل وصفاً جزئياً ، لأنه لا يشتمل على تقسيمات أخرى نعرف ان سكان الاسكندرية كانوا ينقسمون اليها . ولمعرفة مزيد

---

(٣٧) هذه الفقره لاتوجد فيما بقى من كتاب بوليببوس ، ولكن أوردها استرابون ١٧ ، ١ ، ١٢ .

من التفصيلات عن عناصر سكان الاسكندرية وطريقة تنظيمهم يجب أن ترجع إلى الوثائق الرسمية البطلمية .

ذلك ان مدينة الاسكندرية كانت مدينة يونانية (Polis) ، وهناك من المعلومات ما يدل على أنها تمتعت بجميع نظم المدينة اليونانية : فكانت لها مواطنة (Politeia) خاصة بها ، يتمتع بها المواطنون فقط (٣٨) ، ولها قانون خاص (٣٩) ، وهيئةمن الموظفين أو الحكام المنتخبين بواسطةالمواطنين (٤٠) ، وكذلك مجلس تشريعى (Boulé) على الأرجح (٤١) ونظام المدينة يقوم أساساً على وجود المواطنة وهيئة المواطنين . ولذلك يجب أن نعرف هل اعتبر جميع سكان الاسكندرية مواطنين فى المدينة . وقد يتبادر إلى الذهن بناء على عبارة بوليبيوس السابقة ان طائفة المصريين لم تكن ضمن هيئة المواطنين ، وان جميع العناصر المختلطة من أصل اغريقى كانت تكون هيئة المواطنين . ولكن عند مقارنة عبارة بوليبيوس بالوثائق الرسمية البطلمية من برديات ونقوش يتضح أن هذا التصور غير صحيح .

ولا يضاح هذه الحقيقة نقول ان وثائق العصر البطلمى تبين ان هيئة المواطنين كانوا منظمين — على أساس نظام مدينة أثينا — فى قبائل (tribes=Phylae) وأحياء (تسمى demoi) هذه التقسيمات لم تكن خططاً أو أحياء طوبوغرافية ، ولكنها تقسيمات ادارية أو وحدات سياسية (أشبه بالدوائر الانتخابية) ، كان للمواطنين فقط حق التسجيل فيها . ونعرف ان عدداً كبيراً من سكان المدينة لم يكونوا مواطنين ، ولذلك

---

(٣٨) M.A.H. el Abbadi, Alexandrian Citizenship, J. E.A., 48 (1962) pp. 106 ff.

(٣٩) P. Hal. I (second helf of III B.C.).

(٤٠) A.H.M. Jones, Cities of the Eastern Provinces, P. 302 f.

(٤١) H.A. Musurillo Acta Alexandrinorum, no. I p. 1ff and commentary pp. 83 ff. cf. the recent work of P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, Oxford (1972).

لم يسجلوا فى سجلات القبائل واحيائها (الديمات) . ولدينا وثيقة على جانب كبير من الأهمية تظهر هذا الوضع وتكشف عن طريقة تنظيم البطالمة للاعداد الكبيرة المختلطة من سكان المدينة . وتتضمن هذه الوثيقة قراراً ملكياً (Prostagma) يحدد البيانات التى ينبغى اثباتها فى جميع الوثائق التى تقدم إلى محاكم الاسكندرية . وأهميتها الرئيسية لنا انها تلقى ضوءاً على طبقات السكان فى المدينة ، على النحو التالى :

ليثبت الجنود أسماءهم ومواطنهم الأصلية ، والوحدات العسكرية التى ينتمون لها ، والرتب العسكرية التى يحملونها . (ويثبت) المواطنون اسماء آبائهم واحيائهم (demoi) ، وإذا كانوا جنوداً ، (فليثبتوا) وحداتهم ورتبهم . (ويثبت) الآخرون اسماء ابائهم ومواطنهم الأصلية ونوع الحرفة التى يؤدونها (٤٢) .

لهذه الوثيقة أهمية خاصة ، فهى تدعم وتتفق مع عبارة بوليبيوس سالفة الذكر من ناحية ، وتزيد عليها تفصيلا . فهناك طائفة الجنود المرتزقة الذين جاءوا أصلا من مواطن مختلفة . ثم هناك جماعة المواطنين الذين كانوا جميعاً مسجلين فى أحياء (demoi) وبعضهم كان يشتغل بالجندية أيضاً . وأخيراً هناك «الآخرون» ، الذين لم يكونوا مصريين فقط ، ولكن شملوا عناصر أخرى من المهاجرين الأجانب ، ولذلك لزم — مثل الجنود المرتزقة أن يسجلوا مواطنهم الأصلية . ونظراً لأن هؤلاء «الآخرين» كانوا خارج التنظيم العسكرى للجيش وخارج التنظيم المدنى للمواطنين حسب احيائهم فقد طلب منهم اثبات حرفهم وصناعاتهم المسجلين للعمل فيها . ويبدو ان هذه الطريقة فى تنظيم الأهالى حسب أعمالهم كانت طريقة مصرية قديمة (٤٣) .

يتضح من هذا النص ان سكان المدينة لم يكونوا جميعاً مواطنين بها . ولدينا وثائق كثيرة أخرى تثبت ان كثيرين من الأغريق أنفسهم فى المدينة

(٤٢) P. Hamb. 168. (250 B.C. or earlier),

(٤٣) هيرودوت ٢ ، ١٦٤ .

كانوا غير مواطنين ، وانما كانوا رعايا الملك البطلمى مباشرة شأنهم فى ذلك شأن المصريين . ولكن النقطة الأخرى التى اختلف حولها العلماء كثيراً ولازالوا يختلفون ، هى هل كان جميع المواطنين فى الاسكندرية سواء من حيث الحالة المدنية ؟ ليس هنا مجال التعرض لهذا الموضوع بالتفصيل لتعقد طبيعته وشدة اختلاف الرأى بشأنه . ولكن يكفى أن أقول ان الاتجاه الغالب بين العلماء هو أن مواطنى الاسكندرية كانوا ينقسمون على الأقل إلى منزلتين أو طائفتين من حيث الحالة المدنية أو المركز القانونى ، أحداهما تشمل المواطنين كاملى الأهلية المدنية ، وهؤلاء كانوا مسجلين فى القبائل والأحياء (demoi) ، والطائفة الأخرى تشمل مواطنين أقل منزلة وغير مسجلين فى أحياء (demoi) ، وانما يطلق عليهم فقط اسم اسكندريين ولكن دراسة قمت بها لجميع المصادر القديمة الخاصة بهذا الموضوع اقتنعتنى أن هذا التقسيم فيه شيء من التعسف ، وليس هناك دليل قاطع على وجوده قديماً . وعلى ذلك فانى اعتقد ان جميع مواطنى الاسكندرية كانوا فى حالة مدنية واحدة ، ومركز قانونى واحد ، وانهم جميعاً كانوا مسجلين فى ديمات (demoi) (٤٤) ، ومما يطمئننى على صحة هذا الاستنتاج ان مزيداً من العلماء فى الخارج أصبحوا يميلون إلى الأخذ بهذا الرأى (٤٥) ، رغم ان هناك من لايزال يتمسك بوجهة النظر القديمة (٤٦) .

يتبين من ذلك ان مجتمع الاسكندرية القديمة كان مركب التكوين شديد الاختلاط من عناصر مختلفة ، وأن معلوماتنا عن بعض جوانبه لا زال يعتورها النقص وعدم الوضوح . وننتقل الآن للحديث عن أهم طائفتين فى المدينة ، وهما الاغريق والمصريون . ومن حسن الحظ أن لدينا قدرا من معلومات عنها يساعد الباحث على الدراسة .

---

(٤٤) M.A.H. El Abbadi, Alexandrian Citizenship, J.E.A., 48 (1962) p. 101 ff.;

(٤٥) A.H.M. Jones, cities of the Eastern Roman provinces, 2nd. ed (1970) p. 474, note 8.

(٤٦) P.M. Fraser. Ptolemaic Alexandria, (1972) II. p. 130, n. 100.

ورغم ان الاسكندرية كانت مدينة يونانية ، أسست على النمط الأثينى ، وخططت حسب قواعد هندسة المدن الأغريقية كما عرفت فى القرن الرابع ق . م . وان الطابع الغالب على الحياة فيها هو الطابع الأغريقى ، فان مصادرنا تميز من بين جميع العناصر الأجنبية ، عنصراً واحداً نشعر أنه كان يتمتع بمنزلة ومكانة خاصة ، وذلك هو عنصر المقدونيين . فمن وجهة النظر الأغريقية لم يكن المقدونيون اغريقاً ، رغم انهم كانوا يسيرون نحو الاصطباغ بالصبغة الاغريقية بخطوات سريعة . ولكن نظراً لأنهم كانوا ينتمون إلى عنصر الاسكندر الأكبر أولا ثم الملك بطلميوس بعد ذلك ، ونظراً لأنهم كانوا يعتبرون أرقى وحدات الجيش وأهم عناصره ، فلم يكن غريباً ان شعروا بشيء من الاعتزاز والفخر بمكانتهم فى الجيش ويبدو فعلا ان الاسكندر ومن بعده بطلميوس أولوا العناصر المقدونية عناية واهتماماً خاصاً . وقد ذكرنا ان الاسكندر عند تأسيسه الاسكندرية جعلها مستعمرة مقدونية ، وأقام بها تبعاً لذلك حامية مقدونية (٤٧) . ولابد أن بطلميوس الأول قد أضاف اليهم قوة أخرى أحضرها معه من بابل عندما عين ساترابا على مصر عقب وفاة الاسكندر ، ومن المحتمل بعد ذلك ان بطلميوس قد حصل على عدد آخر منهم بعد انتصاره على برديكاس (القائد العام بعد موت الاسكندر) حين حاول غزو مصر وتأديب بطلميوس سنة ٣٢١ ق . م (٤٨) . ولقد كان بطلميوس فى حاجة خاصة إلى هؤلاء المقدونيين لبناء جيشه الجديد فى مصر ، فهم جنود يعرف انه يستطيع أن يثق فيهم وأن يطمئن لولائهم فى تحقيق أهدافه السياسية فى مصر ، وفى مواجهة خصومه من القواد الآخرين ، خاصة بعد أن اثبت الجندى المقدونى تفوقه على الجندى الأغريقى تحت قيادة فيليب وابنه الاسكندر المقدونيين وقد اجزل بطلميوس لهم العطاء . ومنحهم كثيراً من الأرض ليستقروا عليها فى مصر فى زمن السلم (٤٩) ، ولكن ما من شك انه حرص على استبقاء

---

(٤٧) يوستينوس ١١ ، ١١ ، ١٣ .
(٤٨) ديودور الصقلى . ١٨ ، ٣٣ ، ١ ومابعده ،
P. Cloché, Dislocation d'un Empire, pp. 70 ff.
(٤٩) M. Launey, Recherches sur Les Armées Hellenistiques, II, pp. 718 ff.

عدد كبير منهم فى الاسكندرية ليكونوا القوة الأساسية فى الحرس الملكى . ولقد استمر الوضع على هذه الحال فى عصر الملوك الثلاثة الأوائل من البطالمة ورغم انهم لم يتلقوا اضافات جديدة من الدم المقدونى فى القرنين الآخيرين من الدولة البطلمية ، إلا أن وحدات عسكرية ظلت تحمل اسم المقدونيين الى أن سقطت الدولة نهائياً والحقها أوغسطس بالدولة الرومانية . ويبدو أن هذه الوحدات احتفظت بالاسم فقط ، فى حين أن تكوينها أصبح من عناصر أخرى مختلفة .

لم يبق جميع المقدونيين جنوداً فقط ، وانما ظهروا فى أعمال مدنية أو حتى دينية أخرى ، فمنهم من كانوا كهنة (٥٠) ، ومنهم من شاركوا فى جوانب من النشاط المالى والتجارى (٥١) ، ومنهم أيضاً من دخل فى عداد مواطنى الاسكندرية وتولى المناصب المدنية الرفيعة فيها ، مثل منصب رئيس الجمنازيوم (٥٢)

وما من شك ان صفة المقدونيين احتلت مكانةرفيعة فى الفترة الأولى من الحكم البطلمى ، وقد انعكس ذلك على مصادرنا بصورة واضحة . ففى القرن الثالث ق . م . كان المقدونيون من نفس عنصر الملوك ، وكونوا أهم وأقوى وحدات الجيش ، ونتيجة لذلك تمتعوا بوضع متميز على سائر الأغريق الآخرين . وقد اكسبهم ذلك أهمية سياسية عند تقرير خلافة العرش ومبايعة الملك الجديد (٥٣) . ولكن لا ينبغى أن نبالغ فى تقدير

---

(٥٠) O.G. I.S.733 = Breccia, Iscrizioni Gr. e Lat., no. 32 (after 186 B.C.)

(٥١) SB. III. 7169, Alexandria (mid. II B.C.); B.G.U. IV. 1052. 3(14 - 13 B.C.)

(٥٢) S.E.G. II. no. 864, Tell Timae (Lower Delta) (early Prolemaic).

(٥٣) يبدو ذلك واضحاً عقب مقتل برديكاس (٣٢١ ـــ م. (: ديو دور الصقلى ١٨ ، ٣٦ ، ٣ – ٧ ، أريانوس ، خلفاء الاسكندر ، ٢٨ – ٣٠ . كورنيليوس نيوس ، ٥ ، وعند اختيار بطلميو س الأول لخليفته : يوستينوس ١٦ ، ٢٧ ، اثينايوس ٥ ، ١٩٦ ومابعده .

هذه الأهمية ونظن أن المقدونيين أو الجيش كان مصدر السلطة فى الدولة (٥٤) ، لأن الملك البطلمى — شأنه فى ذلك شأن ملوك العصر الهلينستى — كان مصدر السلطات . ولكن الملك كان بطبيعة الحال حريصاً على ضمان تأييد الجنود له فى أمر هام مثل خلافة العرش . وفى مثل هذه الظروف كان لرأى الجنود المقدونيين أهمية خاصة (٥٥) . ويبدو أنه كان لهؤلاء الجنود المقدونيين تنظيم خاص بهم ، يمكنهم من الاجتماع فى « جمعية عمومية » (Politeuma) (٥٦) . وقد بقى لهذا التنظيم أهميته وتأثيره السياسى ، طالما كان العنصر المقدونى الأصلى قوياً فى الجيش . ولكن مع نهاية القرن الثالث وطيلة القرنين الثانى والأول ق . م . نجد ان المقدونيين الجدد يصفون انفسهم فى المصادر بأنهم « من السلالة » (tes epigones) أى أنهم ليسوا من مقدونيا مباشرة ، ولكنهم ولدوا فى مصر من سلالة المهاجرين المقدونيين الأصليين (٥٧). وكثير من أبناء هذه السلالة لم يجر فى عروقهم دم مقدونى خالص ، بل كانوا نتيجة زواج مختلط ، ولكنهم خلفوا أباءهم فى وحدات الجيش المقدونية واحتفظوا لأنفسهم بذلك بصفة المقدونية . وكانت تلك هى أولى خطوات التحول فى تكوين المقدونيين . ولكن سرعان ما تناقص اعداد المقدونيين بعد ذلك لعدم امكان الحصول على مهاجرين جدد ، ولم يعد الأفراد من أبناء سلالتهم يكفون لتعويض النقص . فلجأ الملك البطلمى فى اثناء القرن الثانى إلى أن يلحق بوحدات المقدونيين ابناء الجنسيات الأخرى . فنجد مثلا جندياً فى الجيش البطلمى يحمل لقب فارسى (Perses) فى سنة ١١٢ ق . م ، وإذا به فى سنة ١٠٨

---

(٥٤) كما اعتقد P. Jouguet, les Assemblées d'Aexalndrie, BSAA (1948) p. 80

(٥٥) كما يتضح عقب مقتل برد يكاس ، كما سبقت الإشاره فى رقم ٥٣ .

(٥٦) العباره الكاملة

ديودور فى صقلى ١٨ ، ٣٩ ، ٤ ، ١٩ ، ١٥ ، ١ ، ١٩ ، ١ ، ٦١ ، ١ ، ١٩ ، ١ ، ٥١ ، ١ ، راجع أيضاً Jonguet, loc. cit. p. 82.

(٥٧) أنظر القوائم باسمائهم فى Lesquier, Instittions Militaires des Lagides, 110.

ق . م يتخذ لقب مقدونى (Macedôn) ونظراً لأهمية وحدات المقدونيين فى الجيش البطلمى أصلا ، فقد يتبادر إلى الذهن ان هذا التحول من لقب فارسى إلى لقب مقدونى ارتبط بترقية هذا الجندى (٥٨) . ورغم امكان حدوث ذلك أحياناً ، فيجب أن نتنبه إلى أن ذلك لم يكن قاعدة ، ولا ينبغى أن نظن ان صفة «المقدونى» كانت دائماً تعنى أرقى مراحل الجندية طيلة العصر البطلمى . ولدينا حالة أخرى من منتصف القرن الثانى ق . م . تثبت عكس ذلك ، فنجد واحداً من فرق الحراسة أو الشرطة (ephodoi) يحمل لقب مقدونى (Makedôn) ثم نجده بعد ذلك يلتحق بمنظمة (Politeuma) الكريتيين عند ترقيته فى فرق الفرسان (Katoikos Hippeus) (٥٩) . يتضح من هذه الأمثلة أن الوحدات والمنظمات العسكرية التى كانت تقوم أصلا على أساس التكوين العنصرى لأفرادها ، فقط (٦٠) . ونتيجة لذلك يمكننا أن نقول انه كان للمقدونيين نفوذهم عندما كانوا يكونون عماد الجيش البطلمى فى القرن الثالث . ولكنهم بعد ذلك فى القرن الثانى فقدوا هذه الميزة ، وهو تحول لم يقتصر على المقدونيين بل كان مصير كل العناصر الأغريقية والأجنبية الأخرى فى مصر .

وننتقل الآن للحديث عن هذه العناصر الأغريقية التى كونت أكبر جالية أجنبية بالمدينة . بعض هؤلاء الأغريق كانوا قد استقروا فى مصر من قبل فى نوقراطيس أو فى منف ، ولكن العدد الأكبر منهم جاء فى أعقاب فتوح الاسكندر واستجابه لتشجيع البطالمة الأوائل . جاء هؤلاء المهاجرون إلى مصر سعياً وراء الثراء ، وكثير منهم جاء ليحصل على الثروة عن طريق الارتزاق بالجندية ، ولكن اعداداً كبيرة وجدت طريقها

---

(٥٨) أورد هذه الحالة وفسرها بالترقية M. Launey, op. cit., p. 326.

(٥٩) P. Tebt. 32; and 30, ee. 15 — 16

(٦٠) تستمر هذه الظاهره حتى سقوط دولة البطالمة كما يتضح من B.G.U. IV. nos. 1133 (16 — 14 B.C) and 1151, (13—12 B.C.)

إلى الارتزاق عن طريق القيام بشتى أنواع العمل والنشاط الأخرى فى المدينة ، فهم رجال الحاشية الملكية والقصر والموظفون ورجال الفنون والآداب والعلم ، ورجال التجارة والصناعة وأصحاب السفن ، وكثير من هؤلاء أصبحوا تدريجياً أصحاب أرض منحها لهم الملك أو اشتروها بما اكتسبوا من مال .

ومن العسير علينا ان نحدد المدن اليونانية التى صدرت ابناءها إلى الاسكندرية ، فليس لدينا احصاءات كافية لذلك (٦١) ، ولكن يكفى أن نقول ان أكثر من أربعين مدينة يونانية كانت ممثلة فى الاسكندرية ويأتى على رأسهم الاثينيون والأسبرطيون ، والأخيون والبيوتيون والبريتيون والقورينيون (إلى جانب المقدونيين الذين تحدثنا عنهم) . ورغم اشتراكهم جميعاً فى الانتماء إلى العالم الهلليني ، فقد كانوا فيما بينهم يختلفون فى اللهجة أو العادات أو الطباع . ويبدو انهم فى بداية العصر البطلمى كانوا لايزالون يستطيعون أن يميزوا بعضهم من بعض حسب اختلاف لهجاتهم ، وربما حدثت بينهم مشاحنات ، وعصبيات ، كما يحدث أحياناً بين أبناء البيئات المختلفة .

ولقد سجل لنا الشاعر الاسكندرى القديم ثيوكريتوس صورة شاعرية لهذه الحساسية التى وجدت بين العناصر الأغريقية المختلفة فى شوارع الاسكندرية ، وذلك فى قصيدته المرحة المعروفة باسم «نساء من سيراكيوز» أو «نساء فى عيد ادونيس» فهو يصور لنا إمرأتين من نساء الطبقة البورجوازية فى المدينة ، هما «جورجووبراكسنوا» تخرجان مع الجماهير المزدحمة للاحتفال بعيد الإلة ادونيس الذى كان يقام فى القصر الملكى. وينتهى بهما السير الشاق

---

(٦١) تجد فى قوائم أسماء الأجانب بالاسكندرية أكثر من ٥٨ جنسية أجنبية ممثلة ، من بينها أكثر من أربعين جنسية تنتمى إلى مدن أغريقية ، راجع القوائم فى أبحاث Heichelheim, Auswartige Bevolkerung im Ptolemaerreich, Klio, Beiheft, XVII (1925) 83 ff; Archiv Pap. 9 (1930) 47 ff.; and 12 (1937) 54 ff.

فى الزحام الشديد إلى القصر الملكى ، وتدخلان ابهاءه الفسيحة ، وإذا بهما تقفان فى دهشة واعجاب أمام لوحة من النسيج الدقيق تصور الطفل المقدس أدونيس وتعبران عن اعجابهما بهذا العمل الفنى الذى يكاد ينبض بالحياة ولكن المرأتين تفعلان ذلك فى ثرثرةظاهرةيضيق بها من حولهما من المشاهدين فيصيح بهما أحدهم ساخراً بلهجتهما فى الكلام قائلا : «ياإلهى من أولئك النساء ، أرجوكما توقفا عن هذه الزقزقة المستمرة » . ثم يقول لمن حوله «ان زقزقتهما تكاد تهلكنى» . ولكن احدى المرأتين لا تسكت له ، وتنبرى قائلة : «ياللعجب ، ومن أين جاء لنا هذا الرجل . وما شأنك انت إذا كنا نتصايح أو نزقزق . اشتر عبيدك قبل أن تصدر أوامرك . وأعلم انك تخاطب امرأتين من سيراكيوز ، وإذا شئت ان تعرف أكثر من ذلك، فنحن من أصل كورنثى مثل بليروفون ذاته ، ونحن نتحدث اللهجة الكورنثية ، وأظن أنه يحق للدوريين أن يتحدثوا باللهجة الدورية ، أليس كذلك ؟ يحق الإلهة برسيفونى ، لا تجعل لنا سادة أخرين فوق ذلك الذى عندنا فى البيت ، وسوف أفعل ما أشاء ، ووفر عليك هذا العناء» (٦٢) .

ولكن هذا التباين بين اللهجات لم يستمر بين الأغريق فى الاسكندرية ، بل نشأ عن اختلاطهم وامتزاجهم بالزواج لهجة موحدة . وحدث بمرور الزمن أيضاً ان اتخذ كثيرون من غير الأغريق اسماء يونانية ، ولذلك أصبح الاسم اليونانى ابتداء من منتصف القرن الثانى ق . م . لا يعتبر دليلا كافياً على اثبات ان صاحبه منحدر من أصل أغريقى .

ولكن الأغريق الذين استقروا بالاسكندرية لم يكونوا جميعاً — كما ذكرنا من قبل — مواطنين اسكندريين . ومن العسير علينا أن نحدد النسبة العددية بين المواطنين وغير المواطنين . وإذا كان للمواطنين مواطنتهم ونظامهم ، فكيف كان الوضع بالنسبة للآخرين . فى الواقع ان الأغريق كانوا قد ألفوا فى بلادهم نظام المدينة اليونانية بحيث كان من العسير عليهم — حتى فى

---

(٦٢) ثيوكريتوس ، قصيدة ١٥ ، س ٨٧ ومابعده .

المهجر — ان يعيشوا بغير نظام المدينة . وقد فعلوا ذلك فى المستعمرات التى أقاموها لأنفسهم فى جميع هجراتهم السابقة إلى شواطىء البحرين الأسود والأبيض . أما فى مصر فلم يشجع الملك البطلمى هذا الاتجاه ، لأن نظام المدينة وما يتبعه من الاستقلال الذاتى على الأقل كان يتعارض مع مبدأ الحكم المطلق الذى أقامه البطالمة فى مصر . ولكن ارضاء لشعور الأغريق القوى بالانتماء الاجتماعى ، سمح لهم الملك البطلمى بتكوين اتحادات أو منظمات تسمى Politeuma ، تضم كل واحدة منها ابناء الموطن الأغريقى الواحد . على نحو يشبه ما حدث بالنسبة للمقدونيين . فأصبح هناك مثلا بوليتيو للكريتيين وبوليتيوما للبيوتيين ، كما منح بعض العناصر من غير الأغريق مثل اليهود أو من كانوا قد تأغرقوا من سكان اسيا الصغرى حق تكوين بوليتيوما .

والبوليتيوما هيئة مستقلة ذات تنظيم خاص يغلب عليه الطابع العسكرى ولكن كان لها ايضاً أوجه نشاط أخرى اجتماعية ودينية . وما من شك أنها كانت خاضعة للملك مباشرة ، فمن المرجح أن السبب فى انشائها هو أن تضم كل بوليتيوما مجموعة الجنود المرتزقة الذين من موطن واحد أصلا ؛ بحيث يمكن تنظيمهم فى وقت السلم حين ينتشرون فى الريف ويستقرون فى مزارعهم ، ليسهل حصرهم واستدعاؤهم بسرعة عند الحاجة وإذا كانت كل بوليتيوما فى أول الأمر قاصرة على ابناء موطن واحد فانها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن ، وكما حدث فى رابطة المقدونيين كذلك أصبحت بوليتيومات الأغريق منذ منتصف القرن الثانى ق . م . تضم أفراداً من مواطن مختلفة (٦٣) .

وأخيراً ننتقل إلى الحديث عن المصريين فى الاسكندرية البطلمية . وهم — كما سبق أن بينا — أقدم السكان فى ذلك الموقع ، وأصبحوا بعد تأسيس المدينة أكثر العناصر عدداً . ولكن الواضح منذ البداية أنهم كانوا

---

(٦٣) أنظر للكاتب : مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ص ١١١ — ١١٢ .

يمثلون الطبقة الأقل اجتماعياً ، أمام الأغريق الذين كان يمثلون الطبقة الأرقى. وقد نظم المصريون فى الاسكندرية — كما حدث خارجها — حسب أعمالهم وحرفهم . ويظهر المصريون فى بعض مجالات العمل على نحو أوضح من أخرى . فمنهم الكهنة ، أما الأكثرية فكانت تمد المدينة بما تحتاج اليه من الأيدى العاملة . ففى مجال العبادة وخدمة المعابد نجد فى نقش من الاسكندرية ذكر أربعة من المصريين باعتبارهم اعضاء فى مجمع الكهنة الملكيين (Basilistai) الذين يشرفون على العبادة الملكية والآلهة الأخرى (٦٤) . ونظراً لأن أعمال التحنيط كانت من اختصاص الكهنة المصريين ، فقد استمروا يمارسون هذه الأعمال فى الاسكندرية البطلمية (hoi ap' Alexandreias stolistai) » (٦٥) . أما فى مجال الحرف والصناعات فرغم ندرة معلوماتنا بشأن العاملين فيها فى العصر البطلمى ، فهناك دليل كاف للاشارة إلى أن المصريين كونوا الكثرة الغالبية من الأيدى العاملة فى المدينة ، خاصة وان الصناعة فى مصر تعتمد أساساً على العامل الحر وليس على العبيد كما كان الحال فى اليونان وروما (٦٦) . فى الواقع أن فرص العمل الكثيرة المتوفرة فى تلك المدينة المزدهرة أغرت كثيراً من المصريين أيضاً بترك الريف والانتقال اليها . وفى فترات المحن والأزمات فر الفلاحون من قراهم واختبأوا فى أحراش شمال الدلتا أو إلى المدن الكبرى المزدحمة وخاصة الاسكندرية . هذه الظاهرة تكرر حدوثها بشكل قوى فى العصر الرومانى ، ولكن يبدو أن لها جذوراً بطلمية أيضاً ، لأننا نجد الملك بطلميوس الثامن (يوارجيتس الثانى) يعلن فى سنة ١١٨ ق . م . عفواً شاملا عن أولئك الذين هربوا من قراهم لأى سبب كان ويدعوهم إلى العودة ثانية واستئناف أعمالهم السابقة (٦٧) .

---

(٦٤) O.G.I.S. 131, Alexandria (II B.C.)

(٦٥) SB 5216 (I.B.C.)

(٦٦) O.G.I.S. 729 = Breccia, Iscrizione, 23 (221 — 203B. C also cf. my article "Aspects of Working Conditions", in Archaeol & Hist. stud. (published by Arch. Soc. Alex. 1971) no. 4, pp. 81 ff.

(٦٧) P. Tebt. I. 5, ff. 6 — 9 (118 B.C.)

ولكن ثمة مجالا آخر عمل فيه المصريون أكثر أهمية بالنسبة لوضعهم الاجتماعى وأبعد أثراً فى مستقبل الدولة البطلمية كلها ، هو استخدامهم جنوداً فى الجيش . لقد ذكرنا من قبل ان البطالمة الأوائل تجنبوا تجنيد المصريين واعتمدوا على استقدام المقدونيين والأغريق لبناء جيشهم . واستمروا يفعلون ذلك لمدة قرن من الزمان ، طالما كان فى استطاعتهم استيراد الجنود المرتزقة من العالم اليونانى . ولكن بعد مائة سنة نضب معين اليونان ولم يعد البطالمة قادرين على استيراد اعداد كافية من هؤلاء الجنود . فاضطر بطلميوس الرابع ان يتجه إلى المصريين ، فجند منهم نحوا من عشرين ألف ، وذلك عندما هدد دولته الملك السليوقى الحاكم فى سوريا . وكانت المعركة الحاسمة عند مدينة رفح سنة ٨ — ٢١٧ ق . م وفى هذه المعركة حدث أمر أثار دهشة الجميع ، فرغم ان جناح الملك نفسه وقواته من الأغريق تصدع أمام هجمات العدو فى بداية المعركة ولاذت بالفرار ، وجدنا ان الجناح المصرى يثبت فى مكانه ويغير وجه المعركة من هزيمة محققة إلى انتصار باهر . كان لتجنيد المصريين وانتصارهم فى معركة رفح أثار وردود فعل بعيدة ، سياسياً واجتماعياً ومادياً . ولكن لعل أثارها الأدبية والمعنوية بالنسبة للمصريين كانت اخطرها جميعاً . وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ بوليبيوس ، باحساسه السياسى المرهف وذكائه اللماح فعبر عنها بهذه العبارة ، : «ارتفعت ثقة المصريين بأنفسهم لدرجة أنه حدثت ثورة بواسطة الأهالى من السكان ، استمرت بضع سنوات . وحين تم القضاء على الثورة نهائياً ، كان العنصر المصرى فى البلاد قد اثبت قوته ، ولم يعد من الممكن انكاره » (٦٨) . بعد ذلك وفعلا لم يكد الجنود المصريون المنتصرون يعودون مسلحين ، حتى اشتعلت نيران ثورة وطنية شملت مصر كلها : الاسكندرية والريف . ويبدو ان نجاح الثورة فى بعض مراحلها جعل زعماءها والموجهين لها يحلمون بأن تتمكن ثورتهم من الاطاحة بالحكم البطلمى برمته . وأخذوا يروجون لمثل هذه الغاية ، ويوزعون منشورات تدعو اليها . ويبدو أن الكهنة المصريين لعبوا دوراً رئيسياً فى قيادة هذه

(٦٨) بوليبيوس ٥، ٦٥ ، ٥ ، ١٠٧ ، ١٤ ، ١٢ .

الثورة وتوجيهها ، ومن ثم جاءت دعايتهم مصطبغة بالصبغة الدينية . وقد وصلتنا فعلا بعض من وثائق هذه الثورة تثبت هذه الظاهرة . ويمكننا أن نعتبرها من منشورات الثورة ، اتخذت مظهر النبوآت الدينية ، كتبت باللغة الشعبية (الديموطيقية) أصلا . فى واحدة منها يدعى كاتبها انها ترجع إلى عصر الملك تاخوس (٣٦٦ — ٣٦٠ ق . م) . من ملوك الأسرة الثلاثين ، أى قبل الفتح المقدونى . وتتحدث الوثيقة بأسلوب التنبؤ عن تاريخ مصر منذ تاخوس ، وماتعرضت لهمن غزو وحكم اجنبي على يد الفرس أولا والأغريق بعد ذلك . ثم تنتهى النبوءة ببشرى للمصريين بان يوم الخلاص قريب وانه سيظهر واحد من أبناء أهناسية المدينة ، سيحرر مصر ويطرد الأجانب والايونيين أى الأغريق . وما من شك ان فكرة النبوءة وقدمها التاريخى تلفيق قام به الدعاة للثورة حتى يضفوا على دعواهم صفة العراقة والصدق الدينى ، وانما هى فى واقع الأمر حديثة التأليف من زمن الثورة نفسها (٦٩) .

ونجد الأسلوب ذاته فى وثيقة أخرى ، اشتهرت باسم «نبوءة صانع الفخار» . وتتضمن نبوءة أوحى بها إلى فخرانى ونطق بها أمام الملك أمينوفيس من ملوك الأسرة الثامنة عشرة . وما وصلنا من هذه النبوءة هى تراجم يونانية متأخرة ، ولكن أصولها الديموطيقية ترجع من غير شك إلى فترة الوثيقة السابقة . ورغم تهلهل هذه البرديات ، فقد أمكن تتبع معانى بعض فقراتها . فهناك تنبؤ بأنه ستحل بمصر أيام عصيبة تقع فيها تحت حكم الأجانب ، ثم يظهر من بين المصريين من يخلص البلاد . ثم هناك اشارة طريفة تتحدث عن مدينة الاسكندرية على هذا النحو : «(وسوف تصبح المدينة التى بجوار البحر مكاناً — يجفف فيه الصيادون شباكهم ، لأن الآلهة سوف تغادرها إلى منف ، بحيث يقول عنها من يمر بها : كانت هذه المدينة الأم الرؤوم للعالم ، فكل شعوب الأرض وجدت لها مستقراً فيها(٧٠).

(٦٩) أنظر للكاتب «مصر من الاسكندر إلى الفتح العربى ، ص ٧٥ — ٧٦ .
(٧٠) يوجد عرض لهذه البرديات فى :
Bevan, Ptolemaic Egypt, pp. 240 f.

هذان النصان وأمثالهما يعبران أحسن تعبير عن الحالة النفسية للمصريين ومقدار ما شعروا به من كراهية تجاه الأسرة البطلمية . ويبدو ان كلا من الاسكندرية ومنف اتخذا فى العقلية المصرية معنيين رمزيين . فالاسكندرية المدينة التى بجوار البحر — كانت رمزاً لحكم الأسرة البطلمية الأجنبية ، وقلما أطلقوا عليها اسماً آخر غير اسمها المصرى القديم «رع كدت» (راقودة) فقد بقيت رمزاً للوطنية المصرية وأصبحوا يتطلعون إلى اليوم الذى تعود فيه الآلهة ، واقامة الملك إلى منف . ولعل هذا الشعور الذى لازمهم طيلة العصر اليونانى والرومانى يكمن أيضاً وراء قرار عمرو بن العاص بنقل العاصمة من الاسكندرية إلى موقع الفسطاط ، فهو فى منطقة مصرية صميمة . أمام منف على الضفة الغربية وإلى الجنوب مباشرة من أون أو عين شمس على الضفة الشرقية : ويؤيد صحة وجود مثل هذه الآمال والعواطف لدى المصريين فى ابان ثورتهم عقب انتصار رفح ما تضمنته أشهر وثيقة مصرية على الاطلاق المعروفة باسم حجر رشيد . وهو يتضمن قراراً صدر عن مجمع الكهنة المصريين سنة ١٩٦ ق . م . ، فى مرحلة من الثورة اعتقد المصريون ان الملك البطلمى قد استجاب لمطالبهم ، فجنحوا للسلم . ومن أهم ما يسجله الكهنة باعتزاز ان الملك قد اعفى الكهنة من التوجه إلى الاسكندرية مرة كل عام وان ينعقد اجتماعهم فى منف (٧١) . ولابد ان هذا الخبر وحده كان يعتبر انتصاراً للوطنية المصرية . على أى حال ان محاولة انهاء الثورة صلحاً فشلت ، لأن الملك نكل بالذين اشتركوا فى الثورة ، مما جعل الثوار يعودون إلى التمرد والعصيان ، إلى أن امكن القضاء عليهم نهائياً فيما بين ١٨٥ — ١٨٣ ق . م .

أما بالنسبة للمصريين فى الاسكندرية ، فمنذ انتصار رفح أصبح هناك إلى جانب الكهنة والعمال والحرفيين وصغار الموظفين ، عدد لا يستهان به من الجنود المصريين (٧٢). ومنهم من الحق بالحرس الملكى وتولى مناصب

---

(٧١) راجع كتاب «مصر من الاسكندر » ص ٨١ — ٨٣ ، وتوجد ترجمة فى Bevan, op. cit.., 262.

(٧٢) U.P.Z.I. 110 (164 B.C.).

قيادية (٧٣) . وبعبارة أخرى وجدنا زحفاً مصرياً ينمو فى الادارة البطلمية، وخاصة من بين العناصر المصرية فى المدينة، ممن اصطبغوا بالصبغة الأغريقية

ولعل ألمع شخصية فى هذه الطبقة المصرية المتأغرقة هو ديونيسيوس بيتوسرابيس الذى ظهر فى عالم السياسة فى الاسكندرية حوالى سنة ١٦٥ — ١٦٤ ق . م . ، أى فى الجيل التالى مباشرة بعد الثورة التى نشبت بعد رفح ويبدو من اسمه الثانى انه من أصل مصرى ، فى حين يدل اسمه الأول (ديونيسيوس) على انه تأغرق فاتخذاسماً يونانياً . ويبدو انه قد تمكن من الوصول إلى مركز كبير فى القصر الملكى . وهذه هى أول مرة يحتل فيها مصرى مثل هذه المكانة فى الدولة البطلمية . ولكن مهارته الكبرى انه تمتع بشعبية كبيرة أيضاً بين المصريين ، وحاول ان يستغل انقساماً سياسياً بين الملك بطلميوس السادس وأخيه بأن يضرب احد الملكين بالآخر ثم يطيح بهما معاً . فأثار فى الاسكندرية ثورة ضد الأخ الأكبر مدعياً مناصرة الأخ الأصغر . ولكن انكشفت حيلته واتفق عليه الأخوان وتمكنا من القضاء على ثورته فى الاسكندرية .

ولشخصية بيتوسرابيس دلالة اجتماعية إلى جانب دلالته السياسية . فهو يمثل طبقة من المصريين فى الاسكندرية انخرطوا فى دوائر الاغريق ، واتخذوا الأسماء الأغريقية وتحدثوا اللغة اليونانية . وما من شك ان المصريين فى الاسكندرية كانوا أكثر تعرضاً للمؤثرات اليونانية من اخوانهم فى الريف الذين ظل أكثرهم محافظين على لغتهم وتقاليدهم المصرية الموروثة . ويجرنا ذلك إلى الحديث عن جوانب من الحياة الاجتماعية التى شاعت فى المدينة ومقدار تأثر أو تأثير احد الجانبين فى الآخر . ونبدأ بأهم جوانب الحياة الاجتماعية وهو الزواج . ومن المتوقع فى مجتمع يتكون من عناصر مختلفة ان تظهر مشكلة الزواج المختلط . من المعروف ان هذا النوع من الزواج وجد وسمح به قانوناً بين الأغريق والمصريين فى ريف مصر ، خارج

(٧٣) O.G.I.S .731, Alexandria (c. 200 B.C.).

الاسكندرية . اما فى الاسكندرية فان الأمر ازداد تعقيداً ، باعتبارها مدينة يونانية ، لها مواطنتها الخاصة وشخصيتها الذاتية . ويبدو ان ذلك زاد الحياة فى المدينة تعقيداً ، لأن السكان لم ينقسموا إلى مصريين وأغريق فحسب ، بل كذلك إلى مواطنين وغير مواطنين . وكان للمواطنين قوانين خاصة بهم يخضعون لها . ومن الثابت ان قانون مدينة الاسكندرية ، بينما سمح بالزواج بين المواطنين والأغريق من غير المواطنين ، فانه حرم الزواج المختلط بين المواطنين والمصريين . ولكن يبدو ان هذا القانون لم يطبق تطبيقاً دقيقاً ، ووجدت مخالفات جعلت المشرع فيما بعد يدخل عليه تعديلا يخفف من صرامته . فأصبح يعترف بمثل هذا النوع من الزواج إذا تم دون علم أحد الطرفين بالحالة المدنية الرسمية للطرف الآخر ،فى هذه الحالة منح الابناء من مثل هذا الزواج مواطنة الاسكندرية (٧٤) . أما الزواج بين المصريين والأغريق من غير المواطنين فلابد انه سمح به فى المدينة كما سمح به فى الريف. (٧٥)

نتيجة لذلك كله وجد فى الحياة الاجتماعية خليط غريب من التقاليد والنظم القانونية المصرية والأغريقية . وليس لدينا وثائق كافية من الاسكندرية توضح هذه الاختلافات ، ولكن قياساً على ما وجد فى الوثائق من الريف يبدو ان ابسط أنواع الزواج هو الزواج المصرى ، فقد كان يتم فى كثير من الحالات على الأقل بناء على اتفاق شفوى (agraphus) ، أى غير مكتوب ولامسجل ، وبعبارة أخرى كان يقوم على أساس العرض والقبول والاشهار والمعاشرة . ولكن لدينا عقوداً مصرية مكتوبة بشأن اعالة الزوج للزوجة . ولكن هذه العقود فى الواقع عبارة عن اتفاق بين رجل وامرأة متزوجين فعلا بشأن املاكهما والعلاقة المالية بينهما من أجل ضمان حقوق

---

(٧٤) أنظر للكاتب «صور من الحياه الاجتماعية فى الاسكندرية القديمة » فى دراسات أثرية وتاريخية العدد ١ (١٩٦٨) ص ٤٤ – ٤٥ (جمعية الآثار بالاسكندرية) .

(٧٥) Taubenschlag, Law in Greco-Roman Egypt, pp. 77 ff.

الزوجة . وبالتدريج شاع هذا النوع من الزواج المصرى بين الأغريق الذين أصبحوا يعقدون اتفاقاً خاصاً لتنظيم العلاقة المالية بين الزوج والزوجة.

ولكن المألوف بين الأغريق انهم استخدموا عند الزواج عقوداً مكتوبة ومسجلة . وكانت عقود الزواج التى شاعت بين الأغريق فى الاسكندرية تحدد مسئوليات كلا من الزوج والزوجة تجاه الآخر . ولدينا طلب بتسجيل عقد زواج فى الاسكندرية ، هذا نصه :

«إلى بروتارخوس من ثرميون بنت ابيون ، مع وكيلها أبوللونيس ابن خيرياس ، ومن أبوللونيوس بن بطلميوس . اتفق كل من ثرميون وأبوللونيوس بن بطلميوس على أن يجتمعا فى حياة مشتركة ، ويعترف أبوللونيوس بن بطلميوس بأنه قد تسلم من ثرميون عن طريق اليد من منزلها صداقاً يتكون من زوج اقراط من الذهب يزن ثلاثة قراريط ومبلغ ... دراخمة من الفضة . ومنذ الآن سيمد أبوللونيوس بن بطلميوس ثرميون باعتبارها زوجته الشرعية بكل ما يلزمها ، وملابس حسب ما تسمح به موارده المالية ، وانه سوف لا يسيء اليها ولا يطردها ولا يسبها ، ولا يجلب إلى البيت امرأة أخرى ، والا فقد حقه فى الصداق مزاداً مرة ونصف . ويمكن التنفيذ مباشرة على شخص أبوللونيوس بن بطلميوس وأملاكه ، كما لو كان حكم قضائى . وكذلك سوف تفى ثرميون بواجباتها نحو زوجها وحياتهما المشتركة ، وسوف لا تتغيب من المنزل دون اذن من أبوللونيوس بن بطلميوس سواء بالليل أو بالنهار ، والا تأتى فعلا يشين أو يؤذى حياتهما المشتركة ، والا تعاشر رجلا آخر . وإذا تبين بعد المحاكمة انها ارتكبت واحداً من هذه الفعال ، سوف تفقد حقها فى الصداق . وبالاضافة إلى ما سبق فان الجانب المذنب تفرض عليه الغرامة المعينة فى العام السابع عشر من قيصر ، ٢٠ من شهر برموت» (٧٦) .

---

(٧٦) هذا النص يرجع إلى بداية العصر الرومانى وهو يوضح ماكان سائدا فى العصر البطلمى أيضاً من حيث تقاليد الزواج . إذ ليس لدينا عقد زواج بطلمى من الاسكندرية .
B.G.U. 0152 (13 B.C.)

هذه الوثيقة وأمثالها تكشف لنا عن جوانب كثيرة من نظام الزواج الذى ساد فى ذلك الوقت . فالمرأة اليونانية لا تتعاقد بشخصها مباشرة ، وانما معها دائماً وكيل ، عادة والدها أو أخوها . كما كانت المرأة هى التى تقدم «المهر» ، وفى حالة الطلاق ، إذا كان الزوج هو المذنب يفقد حقه فى المهر أو الصداق ، مضاعفاً أو مزاداً مرة ونصف ، ولكن إذا كانت الزوجة هى المذنبة فانها تفقد حقها فى الصداق فقط . وبالاضافة إلى ذلك فكان يفرض على الجانب المخطىء غرامة معينة . كما يلاحظ أيضاً انه قد نص فى هذه العقود على عدم السماح بتعدد الزوجات . وهذا يدفعنا إلى الافتراض بأن تعدد الزوجات كان معروفاً بين الأغريق ومن ثم لزم التنويه فى العقد على عدم السماح به بناء على رغبة الزوجة . أما بالنسبة للمصريين فمن العسير القطع بمدى انتشاره بينهم ، لأن هيرودوت الذى زار مصر فى القرن الخامس ق . م . قال ان نظام الزوجة الواحدة ساد فى مصر (٧٧) . فى حين أن ديودور الصقلى الذى كتب فى القرن الأول ق . م . ذكر ان الكهنة فقط هم الذين مارسوا نظام الزوجة الواحدة ، أما سائر الناس فكان فى استطاعتهم أن يتخذوا من الزوجات ما يشاءون (٧٨) . ولكن الدكتور مصطفى الأمير قد اثبت أخيراً أن هناك دليلا كافياً فى الوثائق الديموطيقية يؤكد وجود عادة تعدد الزوجات بين المصريين فى العصرين الفرعونى والبطلمى (٧٩) .

أما فى مجال الحياة الدينية فقد كان المصريون شديدى التمسك والاعتداد بدينهم وآلهتهم ، فحافظوا على تقاليدهم الدينية الموروثة . ومما ساعدهم على هذا الشعور بالتفوق ، أن الأغريق أنفسهم كانوا مهيأين له ، وكانوا يشعرون تجاه الآلهة المصرية بكثير من الخشوع والرهبة . نعرف ان هذا الموقف شاع بين الأغريق الذين حضروا إلى مصر قبل الاسكندر الأكبر

(٧٧) هيرودوت ٢ ، ٩٢ .

(٧٨) ديودور ١ ، ٨٠ .

(٧٩) Monogamy, Endogamy and Consanguinity in Ancient Egyptian Marriage, BIFAO (1964) p. 14.

حتى ان هيرودوت اعتقد أن بعض الآلهة الأغريقية فى منشأها كانت آلهة مصرية وهاجرت إلى اليونان (٨٠) . وقد ساعد مثل هذا التفكير على تشبيه الآلهة اليونانية بالآلهة المصرية ، فشبه زيوس مثلا بآتون ، وشبهت افروديتى بحتحور وديميتير بازيس وديونيسوس باوزيريس وشبه هيفا يستوس ببتاح وأبوللو بحورس .. وهكذا (٨١) . وقد ساعدت هذه المطابقة على أن تغزو الآلهة المصرية قلوب الأغريق ، فوجدنا الأغريق على كل مستوياتهم الاجتماعية يتعبدون ويقدمون القرابين للآلهة المصرية والأغريقية معاً ، وبمرور الزمن تفوقت الآلهة المصرية (٨٢) .

ومما يوضح هذا الاتجاه ما حاوله البطالمة عندما أرادوا أن يتخذوا الهاً جديداً لدولتهم الجديدة ، بحيث يكون لديه من الصفات ما يجعله مقبولا لدى المصريين والأغريق معاً . فوقع اختيارهم على اله مصرى محلى فى مدينة منف هو الاله أوزير — حابى أو أوزير أبيس . وهو يمثل العجل المقدس أبيس عند اتحاده فى العالم السفلى بالاله أوزيريس . وكان الاله المصرى يمثل ويعبد على هيئة العجل . ولكن خشى البطالمة ألا يتقبل الأغريق هذه الصورة الحيوانية للاله ، ولذلك قرروا عندما أقاموا له معبد السرابيوم بالاسكندرية ، ان يدخلوا على شخصيته تعديلين : الأول يمس اسمه فأصبح سرابيس ليسهل على الأغريق نطقه . والآخر هو تصويره فى صورة بشرية ، ومنحه هيئة تشبه زيوس نفسه (٨٣) . ورغم جهود البطالمة فى الترويج للاله سرابيس والانفاق على معابده ، فان المصريين لم يقبلوا على عبادته أولا ، واعتبروا ما حدث للاله هو نوع من المسخ لشخصيته . ولذلك سرابيس ظل نحو قرن ونصف من تاريخ الدولة البطلمية الها رسمياً بعيداً عن

---

(٨٠) هيرودوت ٢، ٤٢، ٢، ٥٩، ٢، ١٧١ .

(٨١) H.I. Bell, Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt, p.15.

(٨٢) E. Visser, Götte und Kulte, pp. 71. ff.

(٨٣) Bell, op.cit., pp. 19 ff.

قلوب المصريين ومشاعرهم الدينية . حتى إذا كان النصف الأخير من العصر البطلمى وجدنا هذا الاله يزداد شعبية تدريجياً ويصبح فى العصر الرومانى أهم الالهه المصرية جميعاً وأشهرها . ويبدو ان هذا التحول فى شعبية سرابيس لم يحدث الا بعد أن استعاد شخصيته المصرية فى معبد الاسكندرية واقيمت له فى المعبد تماثيل على هيئة العجل . وأكبر دليل على صحة هذا التفسير هو عثورنا على تمثال كامل جميل من الجرانيت الأسود لعجل ابيس فى موقع معبد السرابيوم بجوار عمود السوارى . وهذا التمثال موجود حالياً فى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية (صالة ٦) (٨٤) . وهذا التمثال يعود إلى زمن الامبراطور هادريان فى العصر الرومانى ولكنه يوضح استرداد الاله لشخصيته المصرية .

(٨٤) Breccia, Alexandria ad Aegyptum, p. 115

To: www.al-mostafa.com